حكاياتٌ دعويّة
(٥)

بَيني وَبَينَك الأذَان

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في رحاب الفراسة

في نَدوةٍ تلفزيونيةٍ حِوارِيّةٍ ، تَحدّثَ المتحاورون حولَ مِحْورٍ واحدٍ هو الفِرَاسَةُ...

قَدَّمَ عريفُ الندوةِ المحاضرين.. وتَرْجَمَ ترجمة مختصرةً لكلّ واحدٍ منهم.. ثم قال :

عَرّفَ العلماءُ الفِراسَةَ بأنها : إدراكُ الأشياءِ بقوةِ الذكاءِ ووَفْرَةِ الفِطْنَةِ...

ثم ضَربَ مثلاً عنها من حياةِ النبيّ ﷺ :

عن ابنِ إسحاقَ أنّ رسولَ الله صلواتُ الله عليه لما سار إلىٰ (بدر) نَزَلَ قريباً منها ، ثم ركبَ هو ورجلٌ من أصحابه .

فوقفَ علىٰ شيخ ، فسألَه عن قريش ، وعن محمدٍ وأصحابهِ وما بلغَه عنهم .

فقال الشيخ : لا أُخْبِرُكُما حتىٰ تُخْبِراني مَنْ أنتما .

فقال الرسولُ ﷺ : « إذا أخبرتَنا أَخْبَرْناكَ » .

قال : وذاكَ بذاكَ .

فقال الشيخ : إنه بلَغني أنّ محمداً وأصحابَه خَرَجوا يومَ كذا وكذا ، فإنْ كان صَدَقَني الذي أخبرني ، فهمُ اليوم بمكان كذا وكذا ، بالمكان الذي فيه رسولُ الله ﷺ...

وبلغَنا أنّ قريشاً خرجوا يومَ كذا وكذا ، فإنْ كان صَدَقَني الذي أخبرني ، فهم اليومَ بمكانِ كذا وكذا ، بالمكان الذي به قُريش .

... فلما فَرَغَ من خَبَرِه قال : فَمَنْ أنتمْ؟

فقال النبي ﷺ : « نحنُ من ماء » .

قال أحمد بن عليّ : أَوْهَمَهُ النبي صلواتُ الله عليه بأنه من أهلِ العراق ، فكان العِراقُ يُسمَّىٰ ماء..

* * *

في عهد الخليفة المعْتَضِد

ثم روىٰ أحدُ المدعوِّين إلىٰ الندوةِ ، بعضَ الحكاياتِ التي جرتْ أيامَ الخلافةِ العباسيةِ ، والتي فيها الدلالةُ الواضحةُ علىٰ الذكاءِ والفِراسَةِ عند العربِ . من ذلك ما جرىٰ زَمَنَ المعْتَضِدِ :

ذكر القاضي أبو الحسن الهاشمي عن شَيخٍ من التّجارِ قال :

كان لي علىٰ بعضِ الأمراءِ مالٌ كثيرٌ ، فماطَلَني ومَنَعني حَقّي ، وجعلَ كلّما جئتُ أُطالبُه حَجَبَني عنه ويأمرُ غِلْمانَه يؤْذونَني ، فاشتكيتُ عليه إلىٰ الوزيرِ ، فلم يُفِدْ ذلكَ شيئاً ، وإلىٰ أولياءِ الأمرِ من الدولة فلم يَقْطَعوا منه شيئاً ، وما زادَه ذلك إلا

مَنْعاً وجُحوداً ، فَأَيِسْتُ من المالِ الذي عليه ودَخَلني همٌّ من جِهتِه..

فبينما أنا كذلكَ وأنا حائرٌ أَشْتكي ، إذ قالَ لي رَجُلٌ : ألا تأتي فلاناً الخياط ـ وكان إمامَ المسجدِ هناك ـ؟

فقلتُ : وما عسىٰ أن يَصْنَعَ خياطٌ مع هذا الظالمِ ، وأعيانُ الدولةِ لم يَقْطعوا فيه؟

فقال لي : هو أَقْطَعُ وأَخْوَفُ عنده من جميعِ مَنْ اشتكيتَ إليه... فاذْهَبْ إليه لعلكَ أن تَجِدَ عنده فَرجاً .

قال : فقصدْتُه غيرَ محتفلٍ في أَمْرِه ، فذكرتُ له حاجَتي ومالي وما لَقِيتُ مِن هذا الظالم...

فقام معي ، فحين عاينَه الأميرُ قام إليه وأكرمَه واحترمَه وبادرَ إلىٰ قَضاءِ حقّي الذي عليه ، فأعطانِيه كاملاً من غيرِ أن يكونَ منه إلىٰ الأميرِ

كبيرُ أَمْرٍ ، غير أنه قال له : اِدفَعْ إلىٰ هذا الرّجلِ حقَّه وإلاّ أَذَّنْتُ..!

فَتَغَيَّرَ لونُ الأميرِ ودَفَعَ إليَّ حقّي .

قال التاجرُ : فعجبتُ من ذلك الخياطِ مع رَثاثَةِ حالهِ وضَعْفِ بُنْيَتِهِ كيف انطاعَ ـ أي : انصاع واستمعَ ـ ذلكَ الأميرُ له؟!

ثم إني عَرَضْتُ عليه شيئاً من المالِ فلم يَقْبَلْ مني شيئاً ، وقال : لو أردتُ هذا لكان لي من الأموالِ ما لا يُحْصىٰ...

فسألتُه عن خَبَرِه، وذَكرتُ له تَعَجُّبِي منه وأَلْحَحْتُ عليه...

فقال : إنّ سببَ ذلك أنه كان عندنا في جوارِنا أميرٌ تُركيٌّ من أعالي الدولةِ ، وهو شابٌّ حَسَنٌ ، فمرَّتْ به ذاتَ يومٍ امرأةٌ حسناءُ قد خَرَجَتْ من الحمّامِ وعليها ثيابٌ مرتفعةٌ ذاتُ قيمةٍ...

فقامَ إليها وهو سَكْرانُ ، فتعلَّقَ بها يُريدُها علىٰ نفسِها ليُدْخِلَها مَنزِلَهُ ، وهي تأبىٰ عليه وتَصيحُ بأعلىٰ صوتِها : يا مسلمينَ أنا امرأةٌ ذاتُ زَوجٍ ، وهذا رجلٌ يريدُني علىٰ نفسِي ويُدْخِلُني مَنزلَه ، وقد حَلَفَ زوجي بالطلاقِ ألا أبيتَ في غيرِ مَنْزِلِه ، ومتىٰ بتّ هاهنا طَلِقْتُ منه ، ولَحِقَني بسببِ ذلك عارٌ لا تَدْحَضُه الأيامُ ولا تَغْسلُه المَدامِعُ!

قال الخياطُ : فقمتُ إليه فأنكرتُ عليه وأردتُ خلاصَ المرأةِ من يَدَيْه ، فضَربَني بدبّوس في يده فشجَّ ـ جَرَحَ ـ رأسي ، وغَلَبَ المرأة علىٰ نفسِها ، وأدخلَها منزلَه قهْراً...

فرجعتُ أنا ، فغسلْتُ الدَّمَ عني ، وعَصَبْتُ رأسي ، وصَلَّيْتُ بالناس العشاء ، ثم قلتُ للجَماعَةِ : إنّ هذا قَدْ فَعَلَ ما قد عَلِمْتُم ، فقوموا معي إليه لِنُنْكِرَ عليه ونُخَلِّصَ المرأةَ منه...

فقامَ الناسُ معي ، فهجَمْنا عليه داره ، فثارَ إلينا في جماعةٍ من غِلْمانِه بأيديهم العِصِيُّ والدبابيسُ يَضْربونَ الناسَ ، وقَصَدني هو من بينهم ، فضَرَبَني ضَرْباً شديداً مُبرِّحاً حتىٰ أَدْماني ، وأخرجَنا من مَنزِلِه ونحنُ في غايةِ الإهانَةِ...

فرجعتُ إلىٰ مَنزلي وأنا لا أهْتدي إلىٰ الطريقِ من شِدَّةِ الوَجَعِ وكَثرةِ الدماء .

فنمْتُ علىٰ فِراشي فلم يأخذْني نومٌ ، وحِرْتُ ماذا أَصْنَعُ حتىٰ أُنْقِذَ المرأةَ من يده في الليلِ لترجِعَ فتبيتَ في منزِلِها حتىٰ لا يَقَعَ علىٰ زَوجِها الطلاقُ..

فأُلْهِمْتُ أَنْ أُؤَذِّنَ الصُّبحَ في أثناءِ الليلِ ، لكي يَظُنَّ أنّ الصبحَ قد طَلَعَ ، فيُخرِجَها من مَنزِلِه ، فتذهبَ إلىٰ مَنزلِ زَوجِها...

فصَعِدْتُ المنارةَ وجعلتُ أنظرُ إلىٰ باب دارِه

وأنا أَتكلّم علىٰ عادتي قبلَ الأذان هل أرىٰ المرأةَ قد خَرَجَتْ ، ثم أَذَّنْتُ فلم تَخْرُجْ ، ثم صَمَّمْتُ علىٰ أنه إن لم تخرجْ أقمتُ الصلاةَ حتىٰ يتحقّقَ الصباح .

فبينما أنا أنظرُ هل تَخْرجُ المرأةُ أم لا؟ إذ امتلأتْ الطريقُ فُرْساناً ، ورجالاً وهم يقولون : أين الذي أَذَّنَ هذه الساعةَ؟

فقلتُ : ها أنا ذا ، وأنا أريدُ أن يُعينوني عليه...

فقالوا : اِنْزِلْ ، فنزلْتُ ، فقالوا : أَجِبْ أميرَ المؤمنين...

فأخذوني وذهَبوا بي ، لا أَمْلِكُ من نَفسي شيئاً ، حتىٰ أَدخلوني عليه ، فلما رأيتُه جالساً في مقامِ الخِلافَةِ ، ارتعدتُ من الخَوفِ ، وفَزِعْتُ فَزَعاً شديداً ، فقال : ادْنُ ، فَدَنَوتُ ، فقال لي : ليسْكُنْ روعُكَ ولْيَهْدأْ قَلبُكَ...

وما زال يُلاطِفُني حتىٰ اطمأَنَنْتُ وذَهَبَ خَوفي..

ثم قال : أنتَ الذي أَذَّنْتَ هذه الساعةَ؟

قلتُ : نعمْ يا أميرَ المؤمنين .

فقال : ما حَمَلَكَ علىٰ أَنْ أذّنْتَ هذه الساعةَ ، وقد بَقي من الليل أكثرُ مما مضىٰ منه؟ فَتَغُرَّ[1] بذلك الصائمَ والمسافرَ والمصلّيَ وغيرَهم..

فقلتُ : يؤمّنُني أميرُ المؤمنين حتىٰ أَقُصَّ عليه خَبري؟

فقال : أنتَ آمِنٌ .

فذكرتُ له القصةَ ، قال : فغَضِبَ غَضباً شديداً ، وأَمَرَ بإحضارِ ذلك الأميرِ والمرأةِ من ساعتِه علىٰ أيِّ حالةٍ كانا..

فأُحْضِرا سريعاً ، فبعَثَ بالمرأةِ إلىٰ زَوجِها مع نِسْوةٍ من جِهتِهِ ثِقاتٍ ، ومعهنَّ ثقةٌ من جهته

---

(١) أي يجعلهم مخدوعين ، ويوهم عليهم بالباطل...

أيضاً ، وأمرَه أنْ يأمرُ زوجَها بالعَفْوِ والصَّفْحِ عنها والإحسانِ إليها ، فإنها مُكْرَهَةٌ ومَعْذورةٌ...

ثم أقبل علىٰ ذلك الشابِّ الأميرِ ، فقال له : كَمْ لكَ من الرزْقِ؟ وكم عندكَ من المالِ؟ وكم عندكَ من الجواري والزَّوجات؟

فذكرَ له شيئاً كثيراً ، فقال له : ويحَكَ أما كفاكَ ما أَنْعَمَ اللهُ به عليكَ حتىٰ انتهكتَ حُرمَةَ اللهِ ، وتَعَدَّيْتَ حُدودَه ، وتجرّأْتَ علىٰ السُّلطان... ، وما كفاك ذلك أيضاً حتى عَمِدْتَ إلىٰ رجلٍ أمركَ بالمعروفِ ونهاكَ عن المنكَرِ ، فضربْتَهُ وأهنْتَهُ وأَدْمَيْتَهُ ـ جرحْتَه ـ؟!

فلم يَكُنْ له جوابٌ ، فأَمَرَ به فجَعَلَ في رِجْلِهِ قَيْداً ، وفي عُنُقِه غِلٌّ ، ثم أَمَر به فأُدخل في كيسٍ كبير ، ثم أَمَرَ به فضُرِبَ بالدّبابيسِ ضرباً شديداً حتىٰ خَفَتَ ، ثم أَمَرَ به فأُلقي في دِجْلَةَ ، فكان ذلك

آخرَ العَهْدِ به ، ثم أَمَرَ صاحبَ الشُّرطة أن يُصادِرَ كلَّ ما في دارِهِ من الأموالِ والغِلالِ و... ، ثم قال لذلكَ الرجلِ الصالحِ الخيّاطِ :

كلما رأيتَ مُنْكراً صَغيراً كانَ أو كبيراً ولو علىٰ هذا ـ وأشارَ إلىٰ صاحِبِ الشُّرطةِ ـ فأَعْلِمْني ، فإنْ اتفقَ اجتماعُكَ بي ، وإلا فعلىٰ ما بيني وبينك الأَذانُ فأَذِّنْ في أيِّ وقتٍ كان أو في مثلِ وقتِكَ هذا...

قال : فلهذا لا آمُرُ أحداً مِنْ هؤلاء ـ أي من أفرادِ الدولة ـ إلا امتَثلوه ، ولا أَنهاهُم عن شيءٍ إلا تركوه خوفاً من المعتَضِدِ ، وما احتجْتُ أَنْ أُؤذِّنَ في مثلِ تلكَ الساعةِ إلىٰ الآن!!!

* * *

من أجمل ما رُوي في الفِراسَة!!

وختم أحدُ المحاوِرين الندوةَ بقولِه :

وأنا بدَوري سأرْوي لكم أجملَ ما قيلَ في الفِراسة والذكاء :

رُوي أنّ رجلين من آل فرعون سعيا برجلٍ مؤمنٍ إلىٰ فرعون ، فأحْضرهُ فرعونُ وأَحضرَهما وقال للسَّاعين : مَنْ ربُّكما؟ قالا : أنتَ ، فقال : للمؤمنِ : مَنْ رَبُّكَ؟ قال : ربي وربُّهما .

فقال فرعون : سَعَيْتُما برجلٍ علىٰ ديني لأقتلَهُ؟!

فَأَمَرَ فرعونُ بقتلِهما! قالوا : فذلك قوله تعالىٰ :

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ (١) .

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) سورة غافر : /٤٥/ .